سورة الحجرات

هى مدنية ، عدة آيها ثمانى عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) ذكر فى هذه قتال البغاة ، وفى تلك قتال الكفار .

(٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .

(٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما فى مطلعيهما .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) .

شرح المفردات

لا تقدموا : أى لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدى الإمام و بين يدى الأب : أى لا تعجل بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ورجح هذا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذى يبلغه بصوته ، يغضون أصواتهم : أى يخفضونها و يلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غشّ .

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة وذكرت هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبى صلى الله عليه وسلم بينهم ، واستتبّ الأمر ، وجب أن توضع القواعد التى تكون بين النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ والآداب التى يجب أن يكونوا عليها ، فهم قد وصفوا فى الأمثال المضروبة فى التوراة والإنجيل بالتراحم فيما بينهم والركوع والسجود والعظم والقوة — وهنا ذكر كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فطلب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض لما فى ذلك من الاستخفاف الذى قد يؤدى إلى الكفر المحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول ، وأشار إلى أولهما بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لا تعجلوا بقضاء أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا مالم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لا يخفى عليه شىء من ضمائر صدوركم .

وبنحو هذا أجاب معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيى ،

فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى رسوله » رواه أحمد وأبو داود والترمذى . ضعيف بجميع طرقه : انظر السلسلة الضعيفة للألبانى ج >

فتراه قد أخر رأيه واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من المتقدمين بين يدى الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل، فلا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .

وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) أى إذا نطق ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبلغوا بها وراء الحد الذى يبلغه ، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبى مُلَيْكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه: أمِّر القَعْقاع بن مَعْبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ما أردتَ إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردتُ خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم) الآية . فكان أبو بكر بعدها لايكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار ، وما حدّث عمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته» .

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) أى و إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد ، يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدى ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لاتشعرون .

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية و إنى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لستَ هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، و إنك فى أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاقّ ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعاتهم .

روى أحمد فى الزهد عن مجاهد قال : كُتِب إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لايشتهى المعصية ولايعمل بها أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولايعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

شرح المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لا يكون وراءك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدها حجرة : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيِّب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب ، ثم أرشدهم إلى ما فيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

روى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فمدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد » .

وقال قتادة : نزلت فى وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزِّبْرِقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ، جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم للمفاخرة ، فنادَوْا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أُمِرْت ، ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبى صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزِّبرقان ابن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حىٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا تُنْصَب البِيَعُ

إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حىّ يفاخرهم إلا استقادوا فكانوا الرأس يُقْتَطَعُ
فمن يفاخرُنا فى ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبارُ تُسْتَمَعُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم قد بيّنوا سنة للناس تُتَّبَعُ
يرضى بها كل من كانت سريرتُه تقوى الإله وكل الخير يَصْطَنِعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيّةٌ تلك منهمْ غير محدثة إنَّ الخلائق فاعلمْ شرُّها البِدَعُ

فى قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤتَّى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مايضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوّزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نسائك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم.

والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه هجّن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجدُر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ماجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغا لايقدر قدره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ

الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

شرح المفردات

الفاسق : هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره ، والتبين : طلب البيان ، والنبأ : الخبر ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة به يحصل علم أو غلبة ظن ، بجهالة : أى جاهلين حالهم فتصبحوا : أى فتصيروا ، نادمين : أى مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع؛ فإن الندم الغم على وقوع شىء مع تمنى عدم وقوعه ، لَعَنِتُّمْ : أى لوقعتم فى الجهد والهلاك ، والكفر: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها ، الفسوق : الخروج عن الحد كما علمت ، والعصيان : عدم الانقياد، من قولهم :عصت النواة: أى صلبت واشتدت ، والرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوىّ .

المعنى الجملى

هذا أدب أدّب الله به عباده المؤمنين — أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأىّ خبر ،لايصدقونه بادى ذى بدء حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لايبالى بالفسق لايبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يُصيبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم ، فتندموا على مافرط منكم وتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع .

روى عن ابن عباس « أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليأخذ الصدقات ، فلما أتاهم الخبر فرحوا به وخرجوا يستقبلونه ، فلما حُدِّث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله ،

فرجع قبل أن يدركوه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، و بينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يارسول الله : إنا حُدِّثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك تغضب غضبته علينا ، و إنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم فى الكتاب فقال : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) الآية» . أخرجه أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ماروى فى سبب نزول الآية .

وقال الرازى : هـذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطئ لايسمى فاسقا ، كيف والفاسق فى أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله: « إِنَّ اللهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اهـ .

ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم فى الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا فى العنت والهلاك ، ولـكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكرّه إليهم الـكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالـكون الطريق السوىّ .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) أى يأيها المؤمنون إن جاءكم الفاسق بأى نبإ فتوقفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، فإن من لايبالى بالفسق فهو أجدر ألا يبالى بالـكذب ولا يتحاماه — خشية إصابتكم بالأذى قوما أنتم جاهلون حالهم ، فتندموا على مافرط منكم وتتمنوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك .

ثم وعظهم سبحانه بعظة هم أحرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه

ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ».

ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال :

(لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقعتم فى الجهد والإثم ، ولكنه لايطيعكم فى غالب ماتريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبى سعيد الخدرى أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى .

ثم استدرك على ماسلف لبيان عذر بعضهم فقال :

(ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكنّ جمعا منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء ، وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا مايوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار ، وكرّه إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر فى مقابلة محبة الإيمان وتزيينه فى القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب فى مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .

(فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لدنه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ماتختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكنّ بعضا منكم حبَّب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

شرح المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوهما عن القتال بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، بغت : أى تعدّت وجارت ، تفىء : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلا حتى لايؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا:أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القسْط (بالفتح) وهو الجور، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» والإخوة فى النسب، والإخوان فى الصداقة، واحدهم

أخ ، وقد جعلت الأخوّة فى الدين كالأخوّة فى النسب وكأن الإسلام أب لهم قال قائلهم :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا افتخروا بقَيْسٍ أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق — بين هنا ما ربما ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يئول الأمر إلى الاقتتال ، فطلب من المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن، أو باستعداء الحاكم عليها ، وإن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشدّ من الأولى .

ثم تمم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ، ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت فى رجلين من الأنصار كان بينهما مدارأة فى حق ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقى منك عنوة لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الإيضاح

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) أى وإن اقتتلت طائفتان من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ، سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ماجعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له .

(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) أى فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لايتجدد بينهما القتال فى وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل فى كل أمورهم فقال :

(وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى واعدلوا فى كل ماتأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين فى جميع أعمالهم و يجازيهم أحسن الجزاء .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله : هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أى إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفى الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذُله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قدره إلا أن يغرف له غَرفة ، ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يُطعمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفى الصحيح أيضا : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » .

ولما كانت الأخوّة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب .

(واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أى رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) .

شرح المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته ، والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما فى الآية ، وقال زهير .

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آلُ حِصْن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أى لايعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمنَ فكأنما عاب نفسه ، والتنابز : التعاير والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ماينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما و يعصيهما وهو الفاسق ، بيّن ماينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لاينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جُرما كبيرا .

روى أن الآية نزلت فى وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كعمار وصُهَيْب و بلال وخبّاب وابن فُهَيْرة وسلمان الفارسى وسالم مولى أبى حذيفة فى آخرين غيرهم لما رأوا من رثاثة حالهم .

وروى أنها نزلت فى صفيّة بنت حُيَىّ بن أخطب رضى الله عنها: أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقلن لى: يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها: هلاّ قلتِ : أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد» .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم) أى لايهزأ ناس من المؤمنين بآخرين : ثم ذكر العلة فى ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء فى الأثر « فربَّ أشعث أغبر ذى طِمْرَين لايؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبرّه » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تتقحمه عينه لرثاثة حاله أو لكونه ذا عاهة فى بدنه أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

(ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيرا من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضعين ، من قِبَل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكم من متلذذ بها ، وكم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال : « ما يسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يارسول الله إن صفية امرأة وقالت[1] بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزجتِ بكلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته »

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيماء إلى أن المرء لايقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لاتصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

(ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة على وجه الخفيّة.

وفى قوله : « أنفسكم » تنبيه إلى أن العاقل لايعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » وقال عليه الصلاة والسلام: « يبصر أحدكم القذاة[2] فى عين أخيه وينسى الجذْع فى عينه » .

---

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعا فى الاستعمال .

(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لاتكشفنْ من مساوى الناس ماستروا ... فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

(ولا تنابزوا بالألقاب) أى لايَدْع بعضكم بعضا باللقب الذى يسوءه ويكرهه كأن يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، أو يا نصرانى :

قال قتادة وعكرمة عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فى بنى سلمة نزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله إنه يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيرهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعيّر بما سلف من عمله .

أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقًّا وصدقا فلا تكره كما قيل لأبى بكر: عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلى: أبو تراب ، ولخالد سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتهارهم به .

وفى هـذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد الشيخوخة أى معها .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه من الألقاب أو لمزه إياه أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) .

شرح المفردات

اجتنبوا : أى تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له ، والإثم : الذنب ، والتجسس : البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس ، والغيبة : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل :أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهتّه » .

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بآداب إن تمسكوا بها كانت مجلبة للمودة والوئام بينهم: منها ماتقدم قبل هـذا ، ومنها ما ذكره هنا ، وذلك من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة :

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخوّنهم فى كل مايقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثما محضا فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم .

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم ، وقد مثل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعا له .

قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حىّ .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى يأيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم السوء ماوجدتم إلى ذلك سبيلا ، ففى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب الغوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيِّب قال : كتب إلىّ بعض إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن ضَعْ أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك مايغلبك ، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتُّهم فلا يلومنّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كافأتَ من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدَّة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق و إن قتلك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاورْ فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاه عنه فعله إثم . ونحو الآية قوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس فى الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا اهـ .

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال :

(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ماتعلمون من الخفايا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس : طلب الأخبار والبحث عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدابر : الهجر والقطيعة .

وعن أبى بَرْزَة الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى عُقر بيته » .

وروى الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لأمتى : الطِّيَرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ؛ إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرْب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا مانهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلاَ تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم .

وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجن : إن هذا لايحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يغتب بعضكم بعضا) أى ولا يذكر بعضكم بعضا بما يكره فى غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحا أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق ، لما فى ذلك من أذى للمغتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تبقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه فى دينه أو دنياه أو خَلقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ،والإفك، والبهتان .

(١) فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ماهو فيه .

(٢) وأما الإفك فأن تقول فيه مابلغك عنه .

(٣) وأما البهتان فأن تقول فيه ماليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحدا التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قُرَّة : لو مرَّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلا للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) أى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لاتحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكرهوا أن تغتابوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعا فاكرهوا ذلك شرعا لما فيه من شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب فى كلامهم . قال المُقَنَّع الكِندى :

فإن أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً

وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أخ ميت تصويرا له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعا .

سمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمرو بن عُبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن البصرى : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

وقد ثبت فى الصحيح من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين خطب فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكرهوا الغيبة واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ويندم على مافرط منه ، ويعزم عزما مؤكدا على ألا يعود إلى مثل مافرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعا لايتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك فى ستة أمور :

(١) التظلم ، فلمن ظُلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .
(٢) الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .
(٣) الاستفتاء فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟.
(٤) تحذير المسلمين من الشر كجرْح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكأن يشير وإن لم يُستشر على مريد التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .
(٥) أن يجاهروا بالفسق كالمدمنين على شرب الخمور وارتياد محالّ الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .
(٦) التعريف بلقب أو نحوه كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم ليقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

شرح المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال علىّ كرم الله وجهه :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهمُ آدم والأم حوّاء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة وتميم من مضر . وحكى أبوعبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصىّ بطن ، وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب — ذكر هنا مايؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأمّ واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون فى مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكمال النفس ، لا بالأمور الدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت فى أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) أى إنا أنشأنا كم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض، و يلمز بعضكم بعضا وأنتم إخوة فى النسب، و بعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه .

وعن أبى مُليكة قال : لما كان يوم فتح مكة رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم. وقال الحرث بن هشام : ماوجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل ابن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، و بين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : «خطب رسول الله بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب» .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لاينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، و إنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، واللمزُ والسخرية والغيبة تفضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهى عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هيِّنٌ على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم و بأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ،

قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

شرح المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمنّا : أى صدقنا بما جئت به من الشرائع وامتثلنا ما أمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، أسلمنا : أى انقدنا لك ودخلنا فى السِّلم وهو ضد الحرب : أى فلسنا حربا للمؤمنين وعونا للمشركين ، لايلتكم : أى لاينقصكم، يقال لاته يليته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية « الحمد لله الذى لايُفات ولا يُلات ولا تُصِمُّه الأصوات » يمنون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حث الناس على التقوى — وبّخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغانم وعَرَض الدنيا ، إذ جاءوا فى سنة مجدبة ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمنّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيّه على مكنون ضمائرهم ، وأنهم لم يؤمنوا إيمانا حقيقيا ، وهو الذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ، ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وفّاهم أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلهما فى تقوية دعائم الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله

يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه لا ينبغى للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حق الرسول أن يمتنّ عليه بأن وفقه إلى الهداية على يديه إن كان صادق الإيمان ، ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، و إحاطته بمكنون سرّ خلقه فى السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين حقًّا .

وقال السُدِّىّ : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهينة وأسلم وغِفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استُنفِروا إلى المدينة تخلفوا .

الإيضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب: صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذبا لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :

(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعدُ ، بدليل أنكم منتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا: أنقدنا لك ، واستسلمنا ولاندخل معك فى حرب ، ولا نكون عونا لعدوك عليك .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتم ، ولكن قولوا أسلمنا ، حملا له عليه السلام على الأدب فى التخاطب ليتأسّى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم فى القول .

(ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى قولوا أسلمنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

فى قلوبكم بعدُ ، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر فى أعمالكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اه .

(وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى وإن تطيعوا الله ورسوله وتخلصوا له فى العمل وتتركوا النفاق لا ينقص سبحانه من أجوركم شيئاً ، بل يضاعف ذلك أضعافا كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير الهفوات مهما اجتهد ـ ذكر أنه غفور لزلاته فقال :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للهفوات ، غفار لزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد فى إكرامه ، ويصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه — أولئك هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفا من السيف ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

ثم أكد ماسبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلِّمون الله بدينكم؟) أى قل لهم: أتخبرون الله بما فى ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقا .

(والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيهما .

وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لايخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف مايعلم من ضمائر صدوركم فتنالكم عقوبته ، إذ لايخفى عليه شىء .

(يمنون عليك أن أسلموا) أى يَعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك مِنَّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و بنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه بما يدّعونه من الإسلام فقال :

(قل لاتمنوا علىّ إسلامكم) أى لاتعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيماناً منة علىّ ، فإن الإسلام هو المنة التى لايطلب مُوليها ثوابا لمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :

(بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى يمن عليكم ، إذ أمدكم بتوفيقه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين « يامعشر الأنصار ، ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا بلى ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل » .

والخلاصة — أن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاما وخضوعا لا إيمانا إظهارا لكذبهم فى قولهم آمنا ، ثم لما منّوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله: أيعتدّون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيمانا وليس بذاك ؟ بل الله هوالذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدّهم بهديه وتوفيقه.

ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات و بصره بأعمال المخلوقات فقال :

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ماغاب فيهما ، وهو بصير بسركم وعلانيتكم ، لايخفى عليه مافى ضمائركم .

وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، و إعلان للنبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ماتضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل و إما تحلية بالفضائل . والقسم الأول هو :

(١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .

(٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا تتجاوز أصواتهم صوته

(٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبى والرسول .

(٤) إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .

(٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيينة بن حِصن ومن معه أكثرهم لايعقلون .

(٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .

والقسم الثانى هو :

(١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبّت منه وتظهر الحقيقة .

(٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

(٣) حبب الله الصلح بين المؤمنين .

(٤) النهى عن السخرية واللمز والتنابز .

(٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن الغيبة والنميمة.

(٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .